 DOI: http://dx.doi.org/10.18860/el.v21i1.6559

الأساليب المعانية في كتاب «نوابغ الكلم» للزمخشري (دراسة تحليلية بلاغية)

AL-ASALIB AL-MA'ANIYYAH FI KITAB "NAWABIGH AL-KALIM" LI AZ-ZAMAKHSYARI

Uthman Idrees Kankawi[1] *and Ahmed Shehu Abdussalam*[2]
[1]Department of Arabic, Faculty of Arts, University of Ilorin, Ilorin, Nigeria
[2]Department of Arabic And Islamic Studies,
Faculty of Arts And Humanities,
Kogi State University, Anyigba
Email: uikankawi@yahoo.com

الملخص

يعد كتاب «نوابغ الكلم» لمؤلفه الشيخ أبي القاسم محمود بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي العباسي من الكنوز الأدبية، وقد جمع بدائع القول من آدابه الشخصية الحكمية المستمدة من الكتاب والسنة. وهناك شروح سبقت هذا البحث في شرح غرائب ألفاظ الكتاب، والحقيقة أن الشرح اللغوي وحده لا يكفي لإظهار قيمة الكتاب. ولهذا يرصد البحث لدراسة بلاغية معانية لهذا الكتاب للوقوف على مقدرة الشيخ في رسم المشاهد المختلفة بالتعبير الجميل المحلى بالفنون البلاغية. وقد صال البحث وجال في معالجة الموضوع على منهج الاسترداد التاريخي لإثبات الحقائق التاريخية، والمنهج الاستقرائي التام لحصر جميع جزئيات مسألة الموضوع البلاغية، ومنهج التحليل الوصفي للنماذج التأصيلية من الكتاب المدروس. وفي ضوء هذه المعطيات نتساءل: هل للشيخ الزمخشري إسهام ملموس وأثر محمود في الأعمال التطبيقية البلاغية التي تنم عن مكانته الرفيعة وعبقريته الفذة في

تطوير فن الأدب الشخصي الذي يعتبر جزءا من الحكم. ومن أهم نتائج البحث، تطعيم المؤلف كتابه بالظواهر المعانية، والميل الشديد إلى التوظيف البلاغي للسجع بأنواعه. وأوصي الباحثين توسيع الدراسة البلاغية لهذا الكتاب من الجانب البياني والبديعي.

Abstract

The book "Nawabigh al-Kalim" is one of the literary works on personal ethics from the Qur'an and Sunnah. The issue of this book is on its place and importance among the writers and critics, and the turnout of educational institutions to prepare it within the courses, which increased its value. There had been preliminary study on the strangeness of the words of the book, and the fact that linguistic explanation alone is not enough to show its value. This is why the study is devoted to examining hostile rhetoric in this book to find out the ability of the Sheikh to draw different scenes with the beautiful local expression of rhetorical art. The research adopted the method of historical retrieval to prove the historical facts, and the inductive method to fully enumerate all the elements of rhetorical issues. While, the descriptive analysis method was used to identify its original models. Among the most important results of the research are, the author emphasizes on the phenomenon of suffering and the strong tendency to the recruitment of rhetorical types of grazing. The authors recommended the expansion of the rhetorical study of this book from the graphic and visual side.

Keywords: Az-Zamakhsyari; *Nawabigh al-Kalim*; *assistive methods*.

مقدمة

يعتبر كتاب «نوابغ الكلم» أو «النصائح الصغار» من أشهر كتب الشيخ أبي القاسم محمود بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي في أدب الحياة وفن الحكم، ألّفه بعد أن جاوز الثانية والأربعين من عمره، وذلك بعد مرضه الناهك الذي أصيب به سنة ٥١٢هـ، جمع فيه طائفة كبيرة من آدابه الشخصية، وما تسرب فيه شيء ينسب إلى غيره، وقد اعتنى به القدامى والمحدثون من العلماء فوضعوا عليه عدة شروح، منها: «النعم السوابغ في شرح النوابغ» لأبي حسن عبد الوهاب بن علاء الخوارزمي، طبع في قازان عام ١٣١٤هـ، و«السوابغ في شرح النوابغ» لسعد الدين التفتازاني، و«شرح ابن دهقان النسفي» المطبوع في مدينة روما سنة ١٨٧٢م بعناية هنريكوس، و«الشموس البوازغ في إضاءة مشكلات النوابغ» لعبد الرزاق المكتوبي، و«درر الدقائق ودرر الحقائق» للموفق بن المجد الخاصي و«لبائد الحكم شرح نوابغ الكلم» للشيخ عبد اللطيف أحمد حنبلي ميكبرا الإلوري. وقد

حاكاه السيوطي فوضع كتابه «درر الكلم وغرر الحكم» وهناك مقالة أكاديمية بعنوان: الدراسة المقارنة بين كتاب«الدر المكنون» وكتاب«نوابغ الكلم» لكاتبه يعقوب عبد الله. وتناول هذا البحث الدراسة التحليلية البلاغية بغية استخراج الظواهر البلاغية في علم المعاني من الكتاب، لتبرير الإسهام البلاغي الذي يدل على قدرة الشيخ الزمخشري في التعبير الجميل الرائع. وتبدو أهمية هذا الموضوع من حيث قلة الدراسات البلاغية لهذا الكتاب الذي جمع في طياته الودائع الحكمية الجليلة والأفكار الميمونة التي تثبت الأخلاق الفاضلة في أوساط المسلمين، متمشياً مع دروس الكتاب والسنة. والبحث في طوله وعرضه مؤلف من خمسة فصول: فالفصل الأول يتناول سيرة حياة المؤلف الشيخ الزمخشري، والفصل الثاني في نبذة عن كتاب «نوابغ الكلم»، والفصل الثالث يتحدث عن أثر القرآن في الكتاب، والفصل الرابع يعالج قضايا علم المعاني عند الزمخشزي، والفصل الخامس هو لب الموضوع ويظهر في دراسة بلاغية للأساليب المعانية في كتاب «نوابغ الكلم» وفيه مباحث: المبحث الأول في فن الكلام الخبري، والثاني في فن الكلام الإنشائي، والثالث في الايجاز والإطناب، والرابع في التقديم والتأخير، والخامس في القصر، والمبحث السادس في قضايا الوصل والفصل، ثم ثبت المراجع.

الفصل الأول: سيرة حياة الشيخ الزمخشري

هو أبو القاسم محمود بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي حنفي المذهب، ومعتزلي العقيدة (الذهبي،١٩٥٦م: ص ٤٣٨)، ولد في يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة للهجرة، الموافقة خمسا وسبعين بعد ألف للميلادية في خلافة عبد الله المقتدي بأمر الله. وله في العمر أحد وسبعون عاماً في التعديد السنوي الهجري وتسعة وستون في التعديد السنوي الميلادي كما قال ابن أخته أبو عمر بن حسن السمسار (هلال، ١٩٩١م: ص٤٣١).

كانت ولادته بزمخشر، وهي قرية من قرى خوارزم (البستاني، ١٩٩٨م: ص٢٣٤)، وكانت خوارزم دولة قديمة نشأت في آسيا الوسطى، يحدها بحر آرال شمالاً، وبحر الخزر غرباً، وبلاد مرو جنوباً، وبلاد تركستان شرقاً، وكانت لها حضارة غنية ومتقدمة، وأخضعت بخارى وسمرقند، وكانت عاصمتها أورغونتش مركزاً تجارياً هاماً في القرن الرابع عشر الميلادي، وهي اليوم جزء من جمهوريتي أوزبكستان وتركستان (شعبة التاريخ، ١٩٦٨م: ص١٢٩).

ومن أشهر ألقابه جار الله، والإمام، وفخر خوارزم، وعلامة الدنيا، وفريد العصر، وأبو القاسم المعتزلي، هو كنيته. وكانت حياة الشيخ الزمخشري، نوراً يتبلور منه العلوم الدينية واللغوية، كان يحييها حال حياته، فأصبحت وفاته على أهل عصره بأسرهم، وعلى اللغة العربية سوء القدر، إذ قد اخترمته منيته في حين يتوافد عليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها للاقتباس من نوره الوهاج. (هلال،١٩٩١م: ص٤٣١).

كانت هوية الشيخ الزمخشري التعليمة قد كلفته أن يغشي معان الأدب منذ نعومة أظفاره، فكان كثير الترحال في طلب العلم، وشديد الهمة في تقمص لباسه، فقد نزل ببخارى وبغداد أكثر من مرة. ورحل إلى مكة المكرمة وأكثر لها المجاورة. وبذلك سمي جار الله. وقد تلقى علوماً شتى فأصبح بذلك عالماً عبقرياً فذاً في البلاغة العربية والنحو واللغة والأدب والتفسير والتوحيد والفقه وعلوم القرآن والحديث. وآراؤه في العربية يستشهد بها علماء اللغة لأصالتها ودقتها ولا سيما في ميادين البلاغة القرآنية. أخذ عن أبي مصر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني. ويضرب بالزمخشري المثل في أنواع الفضائل، وانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه، وأخذوا عنه علماً كثيراً. وتخرج عليه جماعة من الأكابر في اللغة والنحو. وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة، وبشره بها فاجتمع عليه الخلق لجلالته. وتمذهبوا بمذهبه (ابن خلكان، د ت، ج٢، ص١٢٣). وتتلمذ الشيخ الزمخشري أيضاً لأبي الحسن على بن المظفر النيسابوري، وسمع من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي، ولازم أبا سعد السقاني وجماعة من الأساتذة الفضلاء وغيرهم. وكان يشد ركاب الطلب إلى خرسان مراراً عديدة. وكلما ضاقت الدنيا في وجه الزمخشري من أمور الأولى والآخرة ذهب إلى جوار بيت الله الحرام، فذهب إلى مكة في جواره الأول وأقام بها سنتين. واتخذ بيت الله الحرام محط الرجاء لحل معضلات العلوم، ومختبئاً علمياً يقضي به مهماته التأليفية. وبه جادت قريحته بتفسيره الوحيد النوع، اللغوي البلاغي، الذي أثنى عليه العلماء بقولهم: «لولا الكوسج الأعرج لبقي القرآن بكراً» (الزمخشري، ٢٠٠٠م، ص٦). وكان إماماً متقناً في كثير من العلوم التي تلقاها وأضحى أديباً شديد الذكاء، متوقد الذهن، جيد القريحة، وبعيد التفكير وعجيب التعبير في عارضته الكلامية، وشاعرا مجيدا يظهر في أشعاره مدى موهبته الشعرية الملهمة. ومع ذلك فإنه لم تخرجه موهبته الشعرية عن دائرة الكُتاب وأساة القول المريض. وكان رحمه الله لا يدخل بلدا إلا اجتمع عليه أهله واستحلوه واستغزروا ديمته وتتلمذوا عليه. وما ناظر أحدا إلا سلم له واعترف به، ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير نزاع، وركناً وطيداً يلجأ إليه هواة العلوم وتلامذة المعارف.

التقت حضرته ببعض العلماء، فامتدحوه وأثنوا على علمه وفضله اللذين رفعاه إلى المستوى العالي في الذكر. وحين قدم إلى بغداد قاصد الحج زاره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري مهنئاً له بقدومه. فلما جلس إليه أنشده متمثلاً:

كانت مسائلة الركـبان تخبرني ❋ عن أحمد بن دؤود أطيب الـخبر
حتى التقينا فلا واللهِ ما سمعتْ ❋ أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأنشد أيضا:

وأستكبر الأخبار قبل لقائه ❋ فلما التقيا صغر الخبر الخبر

(هلال،١٩٩١م، ص٤٣٢)

فالعصر العباسي الذي فيه الزمخشري هو العامل الجوهري الذي جعله ذا ثقافة عربية فارسية إسلامية. وآثاره العلمية تمثل لنا مدى ثقافته الواسعة التي مهدت الطريق إلى تملك ناصية الذوق الأدبي الرفيع الذي ينم على حسه المرهف بجمال الأثر الأدبي، وقدرته على إبراز مواطن الجمال مع براعة فائقة في التحليل والتعليل. وموضع الشيخ المبحوث عنه هو أنه شديد الحرص على الاطلاع الواسع والحب الزائد على الإلمام المضني بكل ما يتصل بالثقافة العربية، وملم بتراث الأعلام السابقين: أمثال شيخ الأدباء الجاحظ، وابن قتيبة وابن هلال والآمدي والجرجاني وغيرهم.

أما مؤلفاته فهي لا تزال المكتبات العربية والإسلامية تحتفل بها، يربو عددها على الثلاثين، تعد من أمهات الكتب العربية في العالم. ومنها: في النحو العربي «المفصل وشرح بعض مشكلاته» و«النموذج في النحو» و«شرح كتاب سيبويه» و«الأحاجي النحوية» و«المفرد والمركب في العربية»، وفي اللغة وفروعها «أساس البلاغة» و«جواهر اللغة» و«كتاب الأجناس» و«كتاب الأسماء وسوائر الأمثال» و«كتاب الجبال والأمكنة»، وفي الأدب «نوابغ الكلم» و«ربيع الأبرار في الأدب» و«شرح لامية العرب» و«ديوان رسائل» و«ديوان شعر» و«ديوان خطب» و«وأطواق الذهب في المواعظ والأدب»، وفي علم العروض والقافية «القسطاس في العروض»، وفي البلاغة القرآنية «تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» وغيرها.

وقد وافته المنية في ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة (٣٧٥م) الموافقة (١١٤٤م)، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من ترحاله التعليمي بمكة المكرمة. وللمؤلف شهرة فائقة في ميادين العلوم والفنون مثل التفسير، والنحو، والبلاغة، والعروض. وقد أحرز قصب السبق في التعبير ببدائع الأقوال وجوامع الكلم، فإن كتاب نوابغ الكلم

من خير برهان أدبي للدلالة على شخصيته البلاغية، وانتمائه إلى مدرسة السجع والبديع في العصر العباسي الثالث (شعبة التاريخ، ١٩٦٧م: ص١٢٩).

الفصل الثاني: نبذة عن كتاب نوابغ الكلم

كان كتاب نوابغ الكلم من أروع الإنتاجات النثرية الفنية الحكمية التي قيلت في العصر العباسي الثاني لمؤلفه وأبي عذره ومقتضب مره وحلوه، الشيخ أبو القاسم محمود بن محمد بن عمر الزمخشري، وكان من أشهر آثاره، جمع فيه طائفة من أدبه الشخصي، ولم يدخل فيه شيئاً ينسب لسواه، فكان في طليعة الكتب التي جمع فيها أصحابها خواطرهم في أدب الحياة. وقد يرد في بعض المصادر باسم «نوابغ الكلم» أو «النصائح الصغار». وبهذه التسمية ورد اسم الكتاب في نسخة المتحف البريطاني. وهي أهم نسخ الكتاب، وتتألف من تسع ورقات. وقد ألفه الزمخشري بعد أن جاوز الثانية والأربعين، وذلك بعد مرضته الناهكة التي أصيب بها سنة (٥١٢هـ). ووردت الإشارة إليه في تفسيره «الكشاف» الذي فرغ من تأليفه يوم الإثنين ٢٣ / ربيع الآخر /٥٢٨هـ. وقد استهل الكتاب بمقدمة ذكر فيها اسم الكتاب الإضافي وموضوعه الحكمي ومصدره الإلهامي، دافعاً عن عقيدته ومحتجاً بسنوية انتمائه العقدي، ثم أخذت الحكم برقاب بعض تحث على كل ما يورث السعادة في الدارين، يبلغ عددها مائتين وثلاثا وسبعين صفحة، ومما يزيد الإعجاب في الكتاب أنه يتسم بالجودة في بناءه التركيبي على ثلاثة أجزاء من المواد اللفظية وأكثر، ليتفاعل عنوان الكتاب مع مضمونه، إذ قد ورد في العنوان «الكلم» والكلم في الاصطلاح النحوي، ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر، فإن أفاد فكلِم وكلام وإلاّ فكلْم (الذهبي، ١٩٥٦: ص٤٣٧).

ولقد أشار الزمخشري في مقدمة الكتاب وتمهيده إلى اسم الكتاب حيث قال: «اللهم إن مما منحتي من النعم السوابغ إلهام هذه الكلم النوابغ» وأشار إلى مصدره بأنه الإلهام (الزمخشري،٢٠٠٠م: ص٢).

وقد نشأ الخلاف بين العلماء عن اسم الكتاب الحقيقي نتيجة الاختلاف التعبيري في التركيب الواقع في داخل الكتاب على اسم عنوان الكتاب في المقدمة وخارجها في الغلاف. والاسم على الغلاف تركيب إضافي «نوابغ الكلم» وفي داخل الكتاب تركيب توصيفي «النوابغ الكلم»، وقد آثر الدكتور عبد الغفار حامد هلال الوجه الثاني (التركيب التوصيفي) في كتابه: مناهج البحث في اللغة والمعجم. ووضعت مكتبة دار المشرق في «المنجد في اللغة والأعلام» على التركيب الإضافي، الأمر الذي أدي إلى تنويع الرأي حول القضية واختلاط الحابل بالنابل. ومن هذه الآراء ما يأتي:

ذهب جماعة من العلماء إلى أن منشأ الخلاف كان من تعمد التحريف من المطالع، إذ كان من المتأكد أن الغلاف ليس من صنع المؤلف، والقول قول المؤلف، وكما زعم بعض آخر أن التحريف لم يكن من صنع المطابع لقوة الأمانة العلمية التي تمتاز بها المطابع اليوم، بل المحتمل هو أن التحريف قد ينشأ من تلاميذ المؤلف الذين يتوارثون الكتاب كابراً عن كابر، حتى وصل إلى حوزة المطابع. وأقوى دليلهم في ذلك يظهر في الرقم الأول من هوامش الكتاب في شرح قوله: «قال جار الله العلامة فخر خوارزم». وقيل في الهامش: أنه مقول لبعض التلامذة إلى قوله «اللهم».(يعقوب، ٢٠١٢م، ص٩٥).

هذا يقتضي أن ما جاء من الجمل والعبارات قبل قوله رحمه الله: «اللهم إن مما منحتي ...» يُعزى إلى خواطر تلامذة الشيخ المؤلف. ثم جاءت طائفة أخرى قالت غير ما قاله الفريق الأول والثاني، واتخذت المنزلة الوسيطة بين المنزلتين، حين قالوا: إنه من الممكن إثبات الاسمين للمؤلف لخلاص التركيبين من فساد المعنى وركاكة التركيب، والحق أن العصر العباسي من سماته التصنع اللغوي وتنويع العبارة، ولعل هذا هو العامل الدافع إلى ظهور الباطن خلاف الظاهر.

والرأي السديد عندي، هو إثبات التركيب الإضافي «نوابغ الكلم» لا لعدول بعض المطابع إليه، بل لما فيه من الروعة والجمال والإحياء اللغوي والجرس الموسيقي المقابل للتركيب البليغ المتداول بين النابهين من الكُتَّاب والشعراء وهو «جوامع الكلم» ولا يخفى على الناقد والأديب ما في التركيبين «نوابغ الكلم» و«جوامع الكلم» من وجوه التشابه والمماثلة عند البحث عن جمال القول.

الفصل الثالث: أثر القرآن في الكتاب

وقد سبقت إشارتنا إلى ما في الكتاب «نوابغ الكلم» من الحكم البالغة والمواعظ الجليلة الزاجرة المستنبطة من الكتاب والسنة. ولا يخفى أثر القرآن في الكتاب من حيث المعاني التي تعبر عن مدى علاقة المؤلف واشتغاله بأحكام القرآن وحكمه. والقرآن بنفسه يهدي للتي هي أقوم، هدى ورحمة للعالمين. وأن القرآن قد أمد الشعراء والكتاب بطائفة من المعاني الجليلة والأساليب المرنة، بل الألفاظ الجذابة تنطبق منها إيحاءات جرسية خلابة يظهر بها مدى قوة الوحي السماوي على الإنتاجات الأدبية مهما تنوعت مراميها وتياراتها.

ومن النماذج الدالة على تأثر حكم «نوابغ الكلم» بالقرآن قوله: «أرضى الناس بالخسار بايع الدين بالدينار» أي قد تم الخسار على من شأنه إبدال الدين بالدنيا. وفي هذا المعنى التأثير القرآني المعنوي القوي من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ

وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ آل عمران: ٧٧و قوله : «أي مال (حلال) أديت زكاته درت بركاته»، أي إنما يرتكز تطهير الأموال وتنميتها على أداء زكاتها. وقد استمد هذا المعنى من ظلال معاني القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ الروم: ٣٩ وقوله: «العمل مع فساد الاعتقاد مشبه بالسراب والرماد» يهدف المؤلف إلى أن الإيمان الصحيح هو الأساس الجوهري الذي يبنى عليه الأعمال، وبه يثاب يوم القيامة. وأي عمل مؤسس على الاعتقاد الباطل فمثله كمثل السراب في سرعة الزوال والتلاشي. وكالرماد في عدم الثبات. وهذا المعنى مستنبط من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ إبراهيم: ١٨ وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ النور: ٣٩

هذا، فأن الكتاب لم يتأثر كثير بالقرآن من جانب التركيب اللفظي وأسلوب إيراد العبارات، فإنه في هذا الجانب شديد الصلة بصبغة الأدب العباسي الثاني، والسبب في ذلك يعود إلى انتماء الزمخشري إلى مدرسة السجع أو التصنيع اللغوي (يعقوب، ٢٠١٤م: ص ٩٥).

الفصل الرابع: علم المعاني عند الشيخ الزمخشري

لا شك عند جمهور أئمة البلاغة العربية في أن علم المعاني هو تلك المباحث البلاغية التي يحترز بها عن الوقوع في الخطأ في تأدية المعنى الذي يريده المتكلم لإيصاله إلى ذهن السامع (الهاشمي،٢٠٠٠ م: ص٥). وتمد هذه المباحث المعانية إلى فهم المعاني الثواني التي هي الأغراض المقصودة للمتكلم من جعل الكلام مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها تحصل مطابقة الكلام بمقتضي الحال (الهاشمي، ٢٠٠٠ م: ص٣٩).

هذا، فإن علماء البلاغة قد بذلوا جهودا جليلة لبناء صرح هذا الفن، وإن اختلطت به المسائل النحوية عند النحاة، أمثال: سيبويه والمبرد وثعلب، حتى كاد من الصعب على من يتصدى لدراسة علم المعاني دراسة بلاغية أن يفصل بحثه عن الدراسات النحوية.

والشيخ الزمخشري لم يكن ليخالف غيره من نخبة علماء البلاغة في تقرير علم المعاني وتقديس مكانته في دراسة البلاغة، الأمر الذي أدى به أن يضع كتابه أساس البلاغة. وكان هذا الكتاب موضوعا لعلمي البيان والمعاني، ولعله يبرهن قولنا ما قاله الزمخشري في مقدمة أساسه: «ومن خصائص الكتاب التوقيف على مناهج التركيب والتأليف وتعريف مدارج الترتيب والترصيف بسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا، ومتناظمة لا طرائق قددا، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد المنطق الدالة على ضالة المنطق المعلق» (الزمخشري، ٢٠٠٠ م: ص ٨) وما علم المعاني إلا ما أشار إليه الإمام الزمخشري في هذه العارضة، وتراه قد جعل علم المعاني أحد صرحي دراسته البلاغية للقرآن في الكشاف.

هذا، فإن عدم إغراق الشيخ الزمخشري في استعمال جميع المظاهر المعانية في هذا الكتاب الذي هو محط دراستنا لا يعني قصور باعه البلاغي في هذا المجال، بل المقام هو الدّاعي إلى الأسلوب البديعي الرفيع.

الفصل الخامس: دراسة بلاغية لأساليب معانية في كتاب نوابغ الكلم

كانت الصبغة المعانية من المظاهر البلاغية التي تواضع لها حسّ الشيخ الزمخشري البلاغي في تأليف الكلمات وتركيب جمل كتابه القيم «نوابغ الكلم». ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن اهتمامنا في جانب استخراج مكونات البلاغة المعانية يكون في أظهر الفنون المستعملة في تأليف جمل الكتاب وبناء تراكيبه الواضحة. وبناءا على هذا، فإننا سنتناول في دراستنا أسلوب الزمخشري في فن الكلام الخبري والإنشائي وأغراضهما الأصلية وغير الأصلية التي تستفاد من سياق الكلام. ويناقش هذا البحث الأكاديمي: طريق الشيخ في إضراب الخير. وكما لا يغضّ البصر عن طريقته في التقديم والتأخير والقصر البلاغي والإطناب والإيجاز ثم يلتفت هذا البحث إلى فن الوصل والفصل. وبهذا يتولد من هذا الفصل مباحث تدور حول جميع المظاهر المعنية المذكورة. واللّه المستعان في هذا المورد المبين.

المبحث الأول: فن الكلام الخبري

كان فن الكلام الخبري من الفنون الجميلة التي قصد إليها الزمخشري في تأليف عباراته الحكمية. وكانت النسبة الكلامية الخارجة مترتبة على فن الكلام الخبري كما طابقت النسبتان في الإيجاد والسلب وفي الواقع المخبر. وللكلام الخبري نصيب الأسد في تكوين جمل الكتاب وتعبير المعاني.

وقد تتمشى المتعة البلاغية إلى مفاصل الدارس البلاغي عند اكتشاف أسلوب الإمام الزمخشري في غرض إلقاء الخبر. وتراه يعمد إلى إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ويكون الحكم حينئذ فائدة الخبر كمثل قوله: «إذا قلت الأنصار كلت الأبصار»(الزمخشري، د. ت: ص٦)، وقوله: «رب موهبة مذهبة للمروءة» (الزمخشري، د.ت: ص٨)، وقوله: «أعز الناس يبلى من الخطوب بالأعز كأن العزاء أخت الأعز»، وقوله: «الصناع جماهر وقل فيهم من هو ماهر»(الزمخشري، د.ت: ص٢٦). فجميع هذه الأخبار التي تفيض من جواهر كلام الشيخ الزمخشري كانت صادقة في الواقع وطبقت اعتقاد المخبر فيكون الغرض الأصلي فائدة الخبر.

وقد يلجأ تارة أخرى إلى إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم وذلك في مثل قوله: «مخايل الغم والمسرة تبكي وتضحك من أسرة»(الزمخشري، د.ت: ص٦)، وقوله: «كم رأيت من أعرج في درج المعالي أعرج، ومن صحيح القدم ليس له في الخبر قدم» (الزمخشري، د.ت: ص١١)، وقوله: «أعملك تية إن لم تنضجها نية» (الزمخشري، د.ت: ص٣٧). وكان الغرض الأصل البلاغي من هذه العبارات لازم الفائدة لما تضمنه الكلام من إفادة المخاطب بأن المتكلم عالم بالحكم حسب سياق الكلام.

ولا نبتعد حتى نتبيّن أنه رحمه الله يخرج في بعض الأحايين إلى أغراض أخرى خارجية عند إلقاء الخبر حسب مقتضى الحال. لذلك، تراه يخرج الكلام خلاف مقتضى الظاهر ويلقي الخبر ويريد به الفخر كمثل قوله: «متى أصبح وأمسى ويومي خير من أمسي» (الزمخشري، د.ت: ص٥). وهو يفتخر في هذا المثال بما منّ الله به وذلك كون يومه خيرا من أمسه في الصباح والمساء.

ويلقي الخبر ويعني به التوبيخ كما في قوله: «إن جمجم الباطل فأنت أسمع من سمع وأن همهم الحق فكأنك بلا سمع» (الزمخشري، د.ت: ص٧). وهو يستوبخ من المخاطب الذي يعزر الباطل ويهين الحق. وكذلك القول في مثل قوله: «أنتم كبنات وردان يتمرغن في أبي المسك ويقلن ما أطيب ريح المسك» (الزمخشري، د.ت: ص١٣). ويميل رحمه الله تارة أخرى إلى التنشيط وتحريك الهمة لنيل ما يلزم تحصيله في مثل قوله: «العلم جبل صعب المصعب ولكنه سهل المنحدر، والجهل منهل سهل المورد إلا أنه صعب المصدر» (الزمخشري، د.ت: ص٩). وقوله: «قد أمن الحرمان من سأل الرحمن» (الزمخشري، د.ت: ص١٤-١٥). وكان يريد ببعض خبره في الكتاب التذكير بما بين المراتب من التفاوت نحو قوله: «مخلب المعصية يقص بالندامة وجناح الطاعة توصل بالإدامة» (الزمخشري، د.ت:

ص٩). وقوله: «المتقون في ظلال وسرر والمجرمون في ظلال وسعر» (الزمخشري، د.ت: ص٥). فبلا أدنى شك، إن المخاطب يفتطن إلى ما بين المعصية والطاعة في المثال الأول من التفاوت. وكما يتذكر ما بين التقوى والإجرام والظلال والضلال في المثال الثاني.

ويغرض بخبره الاسترحام حيث قال: «حال العاقل الغافل تبسط عذر الجاهل الذاهل»(الزمخشري، د.ت: ص٣٤). فغفلة العاقل عن خطيئة الجاهل تبسيط لعذره وهذا غاية الاسترحام للجاهل الجاني عند العاقل الرؤوف. وهذا، فإن بعض الأخبار في هذا الكتاب يكون لإظهار الضعف كما ظهر في مثل قوله: «كأني ألقن بها مجلة لقمان وأصف بها حكمة آصف سليمان»(الزمخشري، د.ت: ص٢). وهو في هذا المثال يشير إلى مصدر حكمه المأثورة وهو الذي كان ينفجر من مواهب الرحمن لا من مكاسب الإنسان، إظهار ضعفه في تأليف هذا الكتاب العجيب.

وقد يفهم من كلامه عند الدراسة البلاغية لأساليبه المعانية غرض آخر، وهو إظهار التحسر، وذلك في مثل قوله: «حري غير مطور حري أن يكون غير ممطور»(الزمخشري، د.ت: ص٨)، وقوله: «تقول أنا صائم وأنت في لحم أخيك سائم» (الزمخشري، د.ت: ص٢٩)، وقوله: «ربّ كلمة هي عند الناس فصيحة وهي عند الله فضيحة». فالشيخ رحمه الله يظهر غاية أسفه على كل واقع في غير محله في المثال الأول. ويبدي مدى حسرته في المثال الثاني على الصائم المغتاب من فقدان أجره العظيم. وفي المثال الثالث يتحسر على المرء المحافظ على جانب الفصاحة عند الناس وهو غير بال بجانب انكشاف مساويه عند الله سبحانه وتعالى.

وكان يلقي الخبر بطريقة أضرب الخبر الثلاثة الابتدائية والطلبية والإنكارية حسب مقتضى الظاهر. ونرى الشيخ الزمخشري، ينزل مخاطبه في هذا الكتاب منزلة خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الكلام. وفي هذه الحالة يلقي رحمه الله الخبر خاليا من أدوات التوكيد ويكون أسلوبه ابتدائيا. وذلك في مثل وقوله: «العرب نبع صلب المعاجم والمغرب مثل للأعاجم» (الزمخشري، د.ت: ص٦)، وقوله: «صفد فيه ليان صفد فيه ليان»(الزمخشري، د.ت: ص٨)، وقوله: «محب السمر لا يبالي بالسهر» (الزمخشري، د.ت: ص١١)، وقوله: « من أخطأته المناقب لم ينفعه المناسب» (الزمخشري، د.ت: ص١٣).

ويبين في جميع هذه الأمثلة أنها خالية عن أدوات التوكيد لكون ذهن المخاطب في الخلوة عن الحكم، وتراه يقوي بعض خبر كلامه بالضرب الطلبي عندما يرى إمارات التردد في شأن المخاطب. وفي هذه الحالة يلجأ إلى التوكيد ليصل بالمتردد إلى اليقين. ربما يبرهن هذا الضرب الطلبي من كتابه قوله: «قد يلد مثل الحسن مثل الحجاج واللؤلؤ يخرج من

الماء الأجاج» (الزمخشري، د.ت: ص١٩)، وقوله: «إن صح السر صح العلن وإن لم يصح فلن ولن» (النجدي، د.ت: ٤١) وقوله: «إنا البراطيل تنصر الأباطيل»(الزمخشري، د.ت: ص٢٠)، فيرينا وعينا البلاغي عند النظر إلى هذه الأمثلة الواردة إنها مقرونة بأدوات التوكيد وذلك ليتمكن المؤلف من نفسه في قمع المخاطب عن التردد في الحكم إلى اليقين.

هذا، فإنه رحمه الله يخرج فن كلامه الخبري على خلاف مقتضى الظاهر. وينزل المنكر منزلة غير منكر لثبوت دلائل وشواهد لديه، لو تأملها المخاطب ليتواضع، ولارتدع عن إنكاره. وأمتع الأمثلة لهذا الوجه عنده قوله: «السنة منهاجي ومنها أجي» (الزمخشري، د.ت: ص٢)، ولما أحس المؤلف من المعاصرين مدى إنكارهم عليه في جمالة مساعيه ورميهم إياه بالرموق عن الملة والسنة الغراء لانتمائه إلى الطائفة الاعتزالية. وقد أنكروا عليه ذلك الانتماء الطائفي، فأراد أن يقنع المنكرين بأن الاعتزال لا يعني المروق من السنة المحمدية ويثبت لهم أن جميع ما يجيء به في جملة أقواله وأفعاله إنما هي من السنة. ولما كان هناك شواهد ودلائل في هذا الكتاب تبرهن صحة دعواه أعرض عن التوكيد وألقى الخبر خاليا عن التوكيد وخلاق مقتضى الظاهر حسب اعتبار المؤلف الملحوظ.

المبحث الثاني: فن الكلام الإنشائي

فالمقصود من الإنشاء في فن الكلام، هو الطلبي وغير الطلبي، لأن كليهما يتوارد فيهما المعاني والأغراض التي تلعب دورها في مكانها. لكن الغالب الذي يخرج من معانيه الأصلية إلى الأغراض الثواني هو الطلبي.

ولقد ثبت للشيخ الزمخشري ميله الشديد إلى إيثار الإنشاء الطلبي في مقراب جواهر حكمه العميمة النفع من أمر ونهي واستفهام ونداء.

ففي صيغة الأمر أجرى بعض كلامه على منوال أسلوب الإنشاء الطلبي، إذ العبارة تستدعى مطلوبا. ولم يخرج عن معناه الأصلي مثل قوله: «يا بني قفاك عما يقرع قفاك» (الزمخشري، د.ت: ص٤). فإنه في هذه الصورة يطلب من ابنه كفّ اللسان عن الفواحش على وجه التكليف والالتزام بل على وجه الاستعلاء.

وتراه يجري الإمام صيغة الأمر خارجة عن معناها الأصلي إلى معان أخرى منها: التهديد في مثل قوله: «تفتق باللحم حتى تفتق بالشحم» (الزمخشري، د.ت: ص١٠). وهو في هذا المثال، يهدد عن الإقدام على أكل اللحم الكثير الذي يؤدي إلى التّشحم، ومنها الإرشاد في مثل قوله: «كونوا برامكة وما برامكة» (الزمخشري، د.ت: ص٤٠). وقوله: «اطلب وجه الله في كل ما أنت صانع وإلا فعملك كلّه ضائع ضائع» (الزمخشري، د.ت:

ص٣٨). فإنه في هذيْن المثاليْن يرشد إلى خير السّداد، ففي الأول الاقتداء بالبرامكة في حسن تدبير الأمور، وفي المثال الثاني إلى الإخلاص في جميع الأعمال. وما ذلك إلا محض الإرشاد والتوجيه. ومنها: الدعاء نحو كلامه: «وهب لها من يرغب في الآداب السنية»، وقوله: «وخذ بأيْدينا إلى كسب ما تحب وترضى ووّفقنا لمداواة هذه القلوب المرضي» (الزمخشري، د.ت: ص٢). فإنه في هذه الصورة لم يكن ليأمر الله سبحانه وتعالى على فعل شيء بل يدعو الله ويتضرع إليه أن يمنح هبة الفهم الحاسم الراغب في الآداب السنية. وسؤاله الله التوفيق والشفاء من جميع الامراض.

وتراه خلال جولاتنا البلاغية أنه يأتي بالكلام الإنشائي الطلبي ويخرج معناه الأصلي إلى معنى آخر مثل الالتماس في مثل قوله: «قل لبني زياد الكلمة وأكمل منهم الحملة» (الزمخشري، د.ت: ص٣٥). وهو في هذه الحالة يلتمس من المخاطب مواجهة بني زياد بما تضمنه الكلام من المعاني. وإذا صدرت صيغة الأمر من رفيق لرفيقه وذلك هو محض الالتماس (الجارم وآخرون)، ٢٠٠٠م: ص ١٨٩). ومنها: التسوية، كقوله: «استند أو استفد أغارك الكردي ثم طار كالكدري» (الزمخشري، د.ت: ص١٠). وهو في هذا المثال، بدى له رحمه الله التساوي بين الاستناد والاستفادة في صورة الغرور والاغترار. وهو لم يكن ليأمر بمعناه الأصلي، بل المقصود البلاغي هنا هو «التسوية بين الاثنين كما تقدم».

وتأخذ الدراسة بأيدينا إلى ما في صيغة النهي من المعنى الأصلي وغير الأصلي مع جماله البلاغي في فن الكلام الإنشائي الطلبي. وتراه يعمد إلى النهي ويأتي المعنى طبق المعنى الخارجي نحو قوله: «لا تمش بالريبة مهيمنا ولا تنس أن عليك مهيمنا» (الزمخشري، د.ت: ص٧). وقوله: «لا تبادر بادي الرأي فانظر البادي بعد لأي» (الزمخشري، د.ت: ص٨). فالإمام في أسلوبه البلاغي في هذيْن المثاليْن غير آمر، بل يرشد إلى نبذ الريبة عند المشي ومراقبة الله المهمين كما هو يرشد إلى اجتناب المبارة في تعجيل الرأي. وقد تعني صيغة النهي في كتابه التوبيخ نحو: «لا تقل للحرام علق متاع فما هو إلا علق متاع» (الزمخشري، د.ت: ص١٣).

وتأتي صيغة الاستفهام ويكون المعنى خلاف مقتضى الظاهر ومن تلك المعاني، الإنكار: مثل قوله: «حجة الموحدين لا تدحض بشبه المشبهة وكيف يضع ما رفع إبراهيم أبرهة» (الزمخشري، د.ت: ص١٤). والمراد البلاغي من هذا الاستفهام هو محض الإنكار لإمكانية أبرهة على إسقاط شرائع دين سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ومن المعاني التي تخرج إليه صيغة الاستفهام التقرير كقوله: «كم أحدث بك الزمان أمرا إمر»، وقوله:

«كم قذف الموت في هوة من جمجمة مزهوة» (الزمخشري، د.ت: ص٣٨). فثبت القول إنه رحمه الله يقرر حدوث الأحداث غير المرضية في الحياة الإنسانية وديمومية الإماتة للموت. ومنها: التسوية، مثل قوله: «أيهما أشقى أمن يعوم في الأمواج أم من يقوم على الأزواج؟» (الزمخشري، د.ت: ص٣٠) فشقاء العائم في الأمواج والقائم على الأزواج سواسية عند الشيخ الزمخشري ولم يصرح بذلك، بل ألبس كلامه في صورة الإنشاء الطلبي وكان المعنى التسوية ومنها: التعجب، حيث قال: «ما لكم تجمعون في الحكم يا حكمة أما يقعدكم من الحكم حكمة» (الزمخشري، د.ت: ص٣١). وهو حسب الملاحظة البلاغية يتعجب من شأن الحكمة الجامحين في الحكم. ومنها: التحقير، كقوله: «كيف يثني عطف المرح الفخار من أصله من صلصال كالفخار»، وقد أرسل الشيخ الزمخشري صيغة الاستفهام وأراد بها التحقرير أي: تحقير شأن بني آدم الفخورين. ومنها: التمني، وقد يدرك هذا المعنى في قوله: «حلّ الشيبّ بفوديك وحيّهل وتبصره هل تدرك المهل» (الزمخشري، د.ت: ص٣٤). وهو رحمه الله يتمنى لليقين التبصر وإدراك الفوائت.

وكان الشيخ لم يتورع عن تصوير كلامه في صيغة النداء عند القول عن أساليبه المعانية في الكتاب. وقد صاغ بعض الكلام في زي النداء العربي الفصيح على خلاف مقتضى الظاهر. ومن المعاني التي خرج إليها كلامه في «نوابغ الكلم» الزجر: في مثل قوله: «يا بنيّ قفاك عما يقرع قفاك»(الزمخشري، د.ت: ص٤). فالإمام في هذه العبارة لم يقصد تكليفا ولا إلزاما بل يزجر عن قول الفواحش. ومنها: التحسر ويتجلى ذلك في قوله: «يا دنيا! تحلين لأولادك ثم تمرين وتجلين هم ثم تمرين»(الزمخشري، د.ت: ص٣١). وما شأن المؤلف إلا أنه يبدي مدى حزنه الأليم على الدنيا الدانية وعلى عدم استقرارها على حال واحدة، فإذا أضحكتْ أبكتْ وإن آستْ. والعياذ بالله من جعل الدُّنيا أكبر همِّنا ومبلغ علمنا وغاية أعمالنا في الليل والنهار.

المبحث الثالث: الإيجاز والإطناب

أولاً: الإيجاز

إذا تتابعنا أقوال البلاغين في تعريف الإيجاز، نرى أنهم تناولوه من عدة جهات. يقول الرماني هو «تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى». وإذا كان الكلام يمكن أن يعبرّ عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبّر عنه بألفاظ قليلة فالألفاظ القليلة إيجاز»(أبو موسى، ١٩٨٤م: ص٨٨). وقال أحمد المراغي في علوم البلاغة: «هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت

اللفظ القليل، أو هو: التعبير عن المقصود بلفظ أقلّ من المقارف واف بالمراد لفائدة» (المراغي، ١٩٨٦م: ص١٨٢). وجاء الدكتور محمد أبو موسى وأوجز في تعريفه للإيجاز فقال: «هو الوفاء بالمعنى والاقتصاد في اللفظ» (المراغي، ١٩٨٦م: ص٩٠).

وقد تعرض الزمخشري لإيجاز القول لأن موضوع كتابه الحكمة والحكمة بذاتها تتميز بالإيجاز. وتراه رحمه الله يعبر عن بعض حكمه المأثورة في صورة الإيجاز بقسيمية مع الاحتفاظ والإكثار من إيجاز القصر لماله من طبيعة خاصة تجعله متميزا، وأنه تطويع للمعنى الكثير وأسلوب يحتاج إلى فطنة ووعي وسليقة تعرف كيف تصطنع اللمح والإيجاء» (أبو موسى، ١٩٨٤م: ص٩٣). هذا، فإنه لم يرفع البصر عن أسلوب إيجاز الحذف عند التعبير عن حكم الكتاب، لكنه في المنزلة الثانية عند التعداد.

وقد صوّر الزمخشري بعض كلامه في الكتاب من قبيل صورة إيجاز القصر وكان هو أكثرها. ومنها قوله: «حري غير مطور حري أن يكون غير ممطور» (الزمخشري، د.ت: ص٨). وفي هذه العبارة معان جليلة طويت في ألفاظ قليلة لا تحملها الصفحات عند التوضيح والتحليل، إذ هي تفيد كل الإفادة فيما يتعلق بالأمور الدينية وغيرها. ومما جاء من هذا القبيل قوله: «من كانت نعمته واصبة كانت طاعته واجبة» (الزمخشري، د.ت: ص٦).

ولا يزدري بقيمة هذا القول إلا محجوب الذكاء عن إدراك ما تضمنه القول من المعاني المترامية الأطراف. وتستطيع العبارة أن تقضي على كثير من الأمور الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ودواليك. وعلى سبيل المثال، فقد ينتفع بهذه العبارة في الحقل الدعوى بأن الله هو الذي يصبّ علينا نعمته فطاعته علينا واجبة. وكما تفيد العبارة في الشأن السياسي. فالذي كانت نعمته وخيراته تصل إلى أهل البلد فهو مستحق الضمان بالطاعة عند التصويب والانتخاب فمعاني العبارة مكاثرة لكن الشيخ أوجز كل الإيجاز في العبارة إيجاز القصر.

وصاغ بعض الكلام في صورة إيجاز الحذف ومن ذلك قوله: «أي مال أديت زكاته درت بركاته» (الزمخشري، د.ت: ص٤). وقد يخطِّئ الزمخشري غير المهتدي إلى فن إيجاز الحذف فيقول: بأنه رحمه الله يدعو إلى أداء الزكاة من أي مال كان حلالا أو حراما والمسلمون مكلفون بالإنفاق من طيبات ما رزقوا. فأقول إنه رحمه الله، لم ينح ذلك المنحى، بل عبر وحبر وأوجز وأعجز. وذلك بصياغة العبارة في صورة إيجاز الحذف حيث حذف الصفة، وهي «حلال» وأبقى الموصوف وهو «مال» لدليل بلاغي معقول وهو «درت بركاته» معناها تكاثرت بركاته. ولم تكن البركة في الحرام من قبل وكيف تتكاثر

وتتضاعف؟ ومما يمثل به من هذا القبيل قوله: «ربّ صدقة من بين فكيك خير من صدقة من بطن كفيك» (الزمخشري، د.ت: ص٧).

وترى الشيخ قد أعرض عن إظهار ما يرجى من الأفعال في هذه العبارة، ولكن الإمام عبر وأجز إيجاز الحذف لدليل تنوع الأفعال المناسبة في ذلك المقال وللاستغناء عن ذلك. وقد يمكن أن يقال: «رب صدقة تخرج» أو تقول: «رب صدقة تأتي»، أو تقول: «تصدر». وما إلى ذلك من الأفعال الملائمة لهذا النص النثري. ومراد الشيخ البلاغي، هو تنشيط القارئ على إملاء الفراغ المحذوف بما شاء من المواد الفعلية أو الاسمية مما طوعت له نفسه وطابت بها حواسه، ومما يضرب به المثل لهذا الوجه من نوابغ الكلم قوله: «المتقون في ظلال وسرر، والمجرمون في ضلال وسعر» (الزمخشري، د.ت: ص٥). لو أردنا أن نبسط القول في صورته غير المؤجزة نقول: المتقون في ظلال الدنيا وعلى سرر في الآخرة، والمجرمون في ضلال في الدنيا وفي سعر في الآخرة. والمراد بالظلال هو: القرآن، والمراد بالسرر جمع سرير وهي سرر الجنة، والمراد بالضلال هو الكفر، والمراد بالسعر جمع سعير، وهي نار من النيران التي تطلع على الأفئدة. فخلاصة المعنى هي أن المتقين لا يزالون على الحق في الدنيا، وأنهم في الآخرة لفي جنات تجري من تحتها الأنهار. أما المجرمون الكافرون في الدنيا، وهم في الآخرة من أهل النار. ولعل مثل هذا البيان الطويل هو الذي دفع الشيخ إلى إيجاز الحذف في المعنى واقتصد في اللفظ.

ثانيا: الإطناب

كان فن الإطناب من الفنون المعانية التي وفقت في واد التهمة حيث يتهمه الدراس المبتدئ بالتعييب والرداءة وحتى يظن ضميره أن الكلام المطنب يضرب به عرض الحائط أو هو بمعزل عن مراتب البلاغة والفصاحة. وكان مما لا يخامره شك أن فهمه بالنسبة إلى هذا الفن جاء خلاف القصد البلاغي. فليس كل الإطناب يسلم من الرداءة كما لا يخرج كله من الرصافة والرزافة. وهو في تعريفه البلاغي زيادة للفظ على المعنى لفائدة» (المراغي، ١٩٨٦م: ص١٩١)

ولما كان حال المؤلف تقتضي الإيجاز في مقام سرد الحكم المأثورة التي كني عنها بنوابغ الكلم وجيء مع الكلم امتنع عن الخوض في الحشو والتطويل بدون فائدة. ولعل هذا هو السبب الجوهري في قلة عثور ظاهرة الإطناب البلاغية في هذا الكتاب.

وليس من العسير الاهتداء إلى فن الإطناب في نوابغ الكلم الذي جاء حقيقة للفائدة. ومن ذلك قوله: «اللحية حلية ما لم تطل عن الطلية» (الزمخشري، د.ت: ص٤). وقد استوفى

المعنى بقوله: «اللحية حلية» إلا أنه أطنب بقوله: «ما لم تطل عن الطلية». لفائدة وهي الاحتراس. وأوضع الأمثلة لهذا الوجه أيضا قوله: «اطلب وجه الله في كل ما أنت صانع وإلا فعملك كله ضائع ضائع» (الزمخشري، د.ت: ص٣٨) وجاء الإطناب في تكرار الكلمة تقريرا للمعنى في ذهن السامع وتوكيده.

المبحث الرابع: التقديم والتأخير

لا شك أن المؤلف يكون الكلام في الصيغة الاسمية للغرض البلاغي وهو التوكيد. ولو كان بعضها في الصيغة الفعلية - وعند النظر إلى أحوال الإسناد في جمل الكتاب نرى أنه يحرص على التقديم والتأخير عند تكوين بعض الجمل لكشف وجوه أداء المغزى البلاغي. وكان يبقى المسند إليه والمحكوم عليه في مكانه الجملي إلا أنه يقدمه لغرض التوكيد عند الحاجة إلى التوكيد والتوضيع. ونراه في مثل قوله: «هجوم العزمات يفسحن العزمات» (الزمخشري، د.ت: ص١٠).

وإنه قدم الفاعل الذي هو المسند إليه على المسند لتوكيد المعنى المضمون في الجملة. وقد يقال في مثل قوله: «حجة الموحدين لا تدحض بشبه المشبهة وكيف يضع ما رفع إبراهيم أبرهة» (الزمخشري، د.ت: ص١٤). أنه رحمه الله قدم إبراهيم على أبرهة في تلك العبارة بمكان ينبغي أن يقدم أبرهة على إبراهيم ليقترب إلى عاملة تأمينا من الرتبة في الكلام، فأجيب أنه رحمه الله آثر تفضيل نبي الله إبراهيم على أبرهة أحد المبشرين بالنار. وتقديم أحد الأنبياء على غيرهم محبوب في الدين ولاسيما على الكافر، إن كانت هناك مندوحة لغوية لذلك.

هذا، فإنه رأى أن توكيد كلامه لا يتناسب بالتقديم والتأخير في بعض الحالات، فلجأ إلى تكوين الملام في الصورة الاسمية التي تعتبر توكيدا للكلام عند البلاغيين.

المبحث الخامس: القصر

كان فن القصر من أجود الأساليب وأمتع الطرق سلكها الزمخشري للتعبير. وقد اتخذ الشيخ هذه الظاهرة المعانية مطية التعبير ووسيلة هادفة لتطعيم كلامه. ونراه يميل ميل الكرام إلى تخصيص أمر بآخر في بعض كلامه استيفاء لحق الكلام البلاغي كمثل قوله: «ما وراء الخلق الدميم إلى الخلق الذميم» (الزمخشري، د.ت: ص٥)، وقوله: «ما ملأ البيادر إلا اليذور وما ملأ البدر إلا الشذرور» (الزمخشري، د.ت: ص١٥). فالشيخ في جميع هذه الأمثلة الثلاثة قد توغل في تخصيص أمر بأمر وجعل النفي والاستثناء وسيلة التخصيص

وطريقة القصر، وهو في المثال الأول قصر الخلق الذميم على الإنسان الظالم الشرير، وفي المثال الثاني قصر الجد على الغريزة التي هي الطبيعية، وفي المثال الثالث قصر مليان البيادر باليذور والبدر بالشذور. وكان القصر في المثال الأول قصر موصوف على صفة، وهكذا في المثال الثاني، وأما في المثال الثالث فهو قصر صفة على موصوف.

وتراه يقول في صفحة أخري من كتابه: «ما الكبر إلا ريح في كبر» (الزمخشري، د.ت: ص٢٤)، وقوله: «لا تصلح الأمور إلا بأولى الألباب» (الزمخشري، د.ت: ص١٧)، وقد قصر الكبر بالريح في الكبر وقصر الصلح بأولي الألباب، ونوع القصر في هذين المثالين قصر صفة على موصوف. وتراه يلجأ إلى طريقة أخري من طرق القصر وهو العطف «بغير» التي تعني «بل» في مثل قوله: «ما للفساق من حميم غير غساق وحميم» (الزمخشري، د.ت: ص٥).

ويثبت في هذه اللمحة اليسيرة أنه رضي الله عنه، متورع عن الإكثار في استعمال القصر البلاغي في هذا الكتاب. ولعل السر الخفي والقصد الجوهري هو انتماء الكتاب والمؤلف في هذا الكتاب إلى مدرسة البديع والسجع التي كانت تكب على تطعيم الكلام بالظواهر البديعية. ولما كان موضوع الكتاب هو الحكمة وهي غير قابلة للتخمين والمداهنة بل تلحظ إلى الحقيقة دائما، جاء نوع القصر قصرا حقيقيا، وذلك باعتبار الحقيقي والواقع.

المبحث السادس: الوصل والفصل

كان فن الوصل والفصل من الفنون التي نال عناية زائدة عند البلاغيين. وذلك لعظمة موضوعه ودقة مسلكه وأنه لا تكتمل فضيلة المرء إلا باحترازه، وبه يقدر ما أوتي الأديب من الحظ في فن البلاغة» (أغاكا، ٢٠٠٠م: ص٧٢). الأمر الذي جعل بعض البلغاء عند سؤاله عن تعريق البلاغة فقال: «هي معرفة الوصل والفصل» (الهاشمي، ٢٠٠٠م: ص١٧). الوصل عطف جملة على أخرى بالواو، والفصل ترك هذا العطف» (الجارم وأمين، ٢٠٠٠م: ص٢٣).

ولم يكن أكثر بناء كلامه مكوّنا على جملتين حتى يعمد الزمخشري إلى الإكثار من الوصل والفصل. ومع ذلك لم يفعل عن ذلك فيما كان من كلامه مكوّنا بين جملتيْن مع مراعاة تامة لمواضع الوصل والفصل تظهر منه مكانته البلاغية ومقدار حظه النحوي رحمه الله. ولقد عني الزمخشري بالوصل في بعض كلامه في مثل قوله: «صنوان من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضنّ» (الزمخشري، د.ت: ص٧). وإنه في هذا المقال، وصل بين الجملتيْن لما افطن إلى ما بين الجملتيْن من الاشتراك في الحكم الإعرابي. ووصل الإمام لاتفاق الجملتين في الخبرية فيمثل قوله: «عضّوك بالملامة ووعظوك، لو عن رقاد الغفلة

أيقظوك» (الزمخشري، د.ت: ص٧). وقد اتحدت الجملتان في الخبرية فوجب الوصل. وكذلك القول في قوله: «الفلاحة بالفلاح مصحوبة، والبركة على أهلها مصبوبة» (الزمخشري، د.ت: ص٢١) وفي هذا المثال مناسبة تامة بين الجملتيْن واتفاق في الخبرية فاستحق الوصل ومثل ذلك في قوله: «إن جمجم الباطل فأنت أسمع من سِمْعٍ، وإن همهم الحق فكأنك بلا سَمْعٍ» (الزمخشري، د.ت: ص٧).

وكذلك، لما كانت المناسبة بين الجملتيْن واتفقتا في الإنشائية رغب الزمخشري في الوصل فيمثل قوله: «خذ ما هو لدينك وعرضك أصون، ولا تأخذ بما هو عليك أهون» (الزمخشري، د.ت: ص١٢).

فلنرجع إليه رحمه الله في مثل قوله: «الحيل مع الحول، ولا تبتغي عنه الحول» (الزمخشري، د.ت: ص٢٣). فالمثال مكوّن بين الجملتيْن، فالأولى خبرية والثانية إنشائية. ولما رأى الزمخشري أن الفصل قد يوهم خلاف المقصود وصل بين الجملتيْن حسب القانون البلاغي.

وأما عناية الزمخشري في نوابغ الكلم بالفصل الجهد غير قليل وقد استوفى له حقه في مواضعه الأزمة. ومن هذه المواضيع قوله: «المرض والحاجة خطبان أمر من نقيع خطبان» (الزمخشري، د.ت: ص١٢). وفي الجملتيْن اتحاد تام، وكانت الجملة الثانية توكيدا للأولى فوجب الفصل لما كان بين الجملتين كمال الاتصال. ومثل ذلك يقول في قوله: «نظرت عليك السبعون وأنت سبع تصبع في الدنيا كأنك في ثلة ضبع» (الزمخشري، د.ت: ص٢٤)، وقوله: «ما للأحد في حسن البزة من عزة، رب هيئة بذة كل بزة»، والجملة الثانية في مثال الأولى والثانية توكيدا للأولى. وكان بين الجملتين كمال الاتصال، فالواجب هو الفصل دفعا للوهم الذي يضل عن فهمك المعنى المراد.

وجاءت الجملة الثانية بيانا للأولى في بعض كلامه فدعت الحاجة إلى الفصل. وذلك في مثل قوله: «ما لكم تجمحون في الحكم يا حكمة أما يقعدكم من الحكمة حكمة» (الزمخشري، د.ت: ص٣١)، وبين الحملتين كمال الاتصال. وكان يعمد – طيب الله ثراه – إلى الفصل، إذا، رأى أن الجملة القانية جواب عن سؤال يفهم من الأولى، وحينئذ يكون بين الجملتين شبه كمال الاتصال، فأوضح المثال لهذه الصورة الممتعة قوله: «كل قريب لك عليك رقيب يود أن تقبر عما قريب» (الزمخشري، د.ت: ص٣٣). وإذا نظرنا إلى هذه العبارة، نرى أنها فصلت جملة «يود أن تقبر عنا قريب عن جملة، كل قريب لك عليك رقيب». لأن بينهما شبه

كمال الاتصال. إذا، الثانية جواب لسؤال يفهم من الأولى كأن سائلا للسؤال: فماذا يود كل قريب؟ فأجيب: يود أن تقبر عما قريب.

فبهذه الظواهر المعانية من فن الكلام الخبري والإنشائي والإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير والقصر والوصل والفصل، بنى الزمخشري صوره الكلامية في نوابغ الكلم مقدما بها مأدبته البلاغية لتكون عدة لأولنا وآخرنا في ساحة الفن البلاغي المعاصر.

الخاتمة:

ومن المسلم به أن كتاب «نوابغ الكلم» كان من أروع الكتب الأدبية في الحكم، كثر عليه الشروح في تحليل الألفاظ الغريبة. أما مبلغ الجهد في هذا البحث فإنه يتمثل في الشرح البلاغي لمعاني الكتاب المذكور، لقلة مثله في المكتبات. وظهر لي من خلال دراستي الموجزة لهذا البحث ما يلي من نتائج:

١- ثبوت نسبة كتاب «نوابغ الكلم» إلى الشيخ الزمخشري،

٢- كثرة الشروح اللغوية للكتاب،

٣- قلة الشروح البلاغية للكتاب.

٤- ليس لعقيدته الاعتزالية أثر ظاهر في كتابه «نوابغ الكلم».

وعلى كل حال، فإن هذا البحث يساهم في بيان قيمة الكتاب البلاغية، خصوصاً، تلك الملامح المعانية في الخطاب القولي البلاغي. وأخيراً، يوصي البحث جميع الباحثين بالإقدام على الدراسات البلاغية للكتاب من جميع الزوايا. الله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

المراجع

Abu Musa, Muhammad. 1984. *Al-Ijaz al-Balaghi li Turts Ahli al-'Ilm*. t 1. Cairo: Maktabah Wahbah.

Agaka, Abd al-Baqi, Syu'aib. 2000. *Asalib Balaghiyyah fi Diwan al-Ustadz Abdullah*. Cairo: Muasasat al-Mukhtar Li an-Nashr wa at-Tauzi'

Ali al-Jarim wa akharun. d.t. *Al-Balaghah al-Wadhihah*. Beirut Libanon: Dar al-Fikr.

Al-Bustanai, Karam wa akharun. 1998. *Al-Munjid fi al-Lughah wa al-A'lam*. T 28. Beirut Libanon: Dar al-Masyriq.

Adz-Dzhabai, Muhammad Hasan. 1956. *At-Tafsir wa al-Mufassirun*. T. 6. Cairo: Maktabah Wahbah.

Faudi, *Dirasah wa Tahlil*. T 1. Ilorin, Nigeria: Markaz Nasyr al-Makhthuthat al-Arabiyyah.

Al-Hamawi, Yaqut. d.t. *Mu'jam al-Udaba'*, J. 19. Dar al-Maimun.

Al-Hasyimi, Ahmad. 2000. *Jawahir al-Balaghah*. t 2. Beirut Libanon: Dar al-Fikr.

Hilal, Abd al-Ghaffar. 1991. *Manahij al-Bahts fi al-Lughah wa al-Mu'jam*. t 1. Mesir: Mathbaah al-Jilani.

Ibn Khulkan. d.t. *Wafayat al-A'yan*. j 2. Beirut Libanon: Dar ats-Tsaqafah al-Maimanah.

Al-Maraghi, Ahmad. 1986. *'Ulum al-Balaghah*. t 2. Beirut Libanon: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.

An-Najdi, Ali Nashif, d.t. *Tarikh an-Nahw*. Cairo: Dar al-Ma'arif.

Al-Qali, Ismail bin al-Qasim. 1926. *Dzail al-Amali wa an-Nawadir*. Cairo: Dar al-Kutub al-Mishriyyah.

Suyuthi, Jalaluddin. d.t. *Thabaqat al-Mufassirin*. Cairo: Mathbaah as-Sa'adah.

Syu'bah at-Tarikh. 1968. *Tarikh al-Madaniyyat al-Islamiyyah*. al-Khorthum: Ma'had at-Tarbiyyah bi Bukht ar-Ridha, Maktabah an-Nasyr.

Yaqub, Abdullah, 2001. Ilorin Journal of The Humanities, Vol. 3. No. 4.

Az-Zamakhsyari, Mahmud bin Umar. 2000. *Asas al-Balaghah*.Beirut Libanon: Dar al-Fikr.

Az-Zamakhsyari, Mahmud bin Umar. d.t. *Nawabigh al-Kalim*. t 1. Cairo: Maktabah wa Mathba'ah al-Masyhad al-Husaini.